بات من الواضح ما يمكنها أن تصنع المرجعيّة الدينيّة التي كانت وما تزال عماد النصر وخيمة الوطن، إذ يشهد لها القاصي والداني بالفضل والرعاية والحكمة؛ بل حتى الأعداء أيقنوا أن دعامة المرجعيّة كبيرة ولها أثر واضح في الانتصارات، وفي الإصلاح الذي تحاول قوى الشر تأخيره وبأي ثمن، لذلك نجد أن الهمّ الأكبر اليوم عند كثير من أشباه الرجال وخَدَمَة الاستعمار هو كيف يمكن تسقيط المرجعية.

والحال أنّ المرجعيّة وإن اختصّت اليوم بحسب العرف السائد بالمرجعيّة الدينيّة التي صمدت أمام التحدّيات والأزمات إلّا أنها في الحقيقة ليست حكرًا على الجانب الدينيّ. فهناك المرجعيّة السياسيّة والمرجعيّة الاجتماعيّة والمرجعيّة الثقافيّة والمرجعيّة الطبيّة والهندسيّة وغير ذلك كثير، ومن المناسب أن ندرك أن جميع هذه المرجعيّات ابتُليت بالاختبار وعرض عليها الفساد بوسيلة أو أخرى فسقطت وفشلت أمام التحدّيات. واليوم نشهد هذا السقوط في مجال السياسة التي ضُيّعت، وفي المجال الاجتماعي الذي تمزّق، والطبي الذي خسر قيمه الإنسانية فتسلّخ من مهنيّته ومال إلى التجارة حتى بالأنفس، وهكذا الهندسيّة التي خيّبت آمال المجتهدين، والثقافيّة التي لبست ثوب الذلّة واستبدلت تاريخها الثقافيّ بثقافة معلّبة مستوردة فغيّرت الموازين وكأن الثقافة الحقيقيّة باتت وبالًا على أهلها، وبقيت المرجعيّة الدينيّة صامدة في أعين الفاسدين.

لذلك لا نستغرب هذا الكمّ الكبير من الجهد المبذول وبمختلف الوسائل من أجل إسقاط المرجعيّة الدينيّة التي كانت وما تزال حاكمة على المرجعيّات، ومنها نستمد القوّة والبركة في النهوض بإصلاح باقي المؤسّسات والمرجعيّات التي نخرها الفساد فتراجعت وأصبحت منهكة لا حول لها ولا قوّة وتنتظر رحمة المستعمر وإملاءاته التي دمّرت العباد والبلاد.

ولمّا آيست قوى الشر من إخماد نار المرجعيّة الدينيّة بادرت إلى المراوغة بافتعال مرجعيّات دينيّة متعدّدة الاتجاهات، مختلفة الولاءات، تتّخذ من ثوب المرجعية ستارًا، وتنهش لحم الوحدة والإصلاح، والمعلوم أن وجود مراجع عدّة في زمن واحد كان عنصر قوّة للمذهب. إذ كانوا يتكاتفون في المواجهة، ويتلاحمون كقوّة واحدة في قبال الفتن الضارية كما وقفوا وقفة رجل واحد في ثورة العشرين الخالدة وكما كانت أيام مرجعيّة الشيخ الأنصاري والسيد الحكيم والسيد الخوئي (رحمهم الله تعالى). وأما اليوم فنحن لا نخشى على أبناء الحوزة والمرجعيّات الحقيقية التي وقفت إلى جانب المرجعيّة كمؤسّسة قويّة ومتماسكة؛ ولكن الخوف من استيراد وصناعة مرجعيّات تحاول أن تكون في خطّ موازٍ بدعم غربيّ وشرقيّ؛ لتتصدّى للمرجعيّة الحقيقيّة أو تقلّل من شأنها، وهذه بضاعة الغرب وصناعة الشيطان إذ نجد اليوم ومن على شاشات الفضائيات المأجورة ظهور بعض المندسّين بلباس المرجعيّة وإن كانوا مفضوحين إلّا أن الأمر يستلزم الوعي عند العقلاء لتنبيه الشباب والأبناء إلى أن هذا ليس غريبًا على الأعداء ولطالما حاولوا ويحاولون أن ينالوا من المرجعيّة الدينيّة المؤيّدة من الله تعالى بوصفها هي التي تقف سدًا منيعًا في مواجهة المخطّطات الأمريكيّة والإسرائيليّة التي كانت وما تزال تعمل على تضعيف الشعوب ومصادرة خيراتها وتجويع أبنائها؛ لتعيش الأمم حالة من التبعيّة لها فتنعم هي بالاستقرار والقوّة والغلبة.

لن تكون هذه المحاولات هي الأخيرة من أجل تضعيف دور المرجعيّات الدينيّة وإن التكثير من المرجعيّات الحديثة مؤشّر خطير في مسيرة الحرب ضدّ الطغاة والظالمين، واليوم أكثر من كل ذي قبل ينبغي على المؤمنين تحمُّل الدور الرسالي والقيادي في كشف زيف الفاسدين وعملاء الغرب الذين ارتضوا أن يكونوا عبيدًا صاغرين أمام أسيادهم من الغرب، وكذلك محاولة ربط الأمة بقائدها الإلهي الذي وعد الله تعالى عباده المؤمنين في إقامة دولة الحق بعد طول انتظار.